

التأثيرات الثقافية والاجتماعية للسكان الوافدون على بلاد المغرب القديم

أ. مسعودي أحمد
جامعة سعيدة

مقدمة:

إن البحث في تاريخ بلاد المغرب القديم مهما كان موضوعه هو عبارة عن جملة من الاستنتاجات وذلك لقلّة المصادر المضبوطة، ومن أهم ما يمكننا الخروج به كاستنتاجات من خلال دراستنا الموضوع السكان الوافدون على بلاد المغرب القديم، بداية أن الخوض في مسألة أصل البربر وأنهم ساميون أو حاميون أو من سلالة "هندسية أوربية" التي أثارها المفكرون الاستعماريون أمثال "أندري جوليان" و "قزال" والذين يحاولون أن يجعلوا من البربر أوربيّي الأصل، لا فائدة منها، لأن الشاهد الأثري ينفي ذلك، حتى أنهم في بعض الأحيان تراهم ينفون القيم الحضارية عن البربر، وأنهم همج مستوحشون، والواقع عكس ذلك وإلا كيف نفسّر نظام المجتمع البربري متكامل في أغلب نواحيه، وكيف نفسّر أن للبربر لغتهم وكتابتهم الخاصة بهم التي تشكلت دون تأثير أجنبي.

1- التأثيرات الاجتماعية:

إن أول ظاهرة اجتماعية يلمسها الدارس لتأثير السكان الوافدين على بلاد المغرب بالقرطاجيين هي الامتزاج الواضح والانفتاح الحضاري فقد أصبح بذلك المجتمع المغربي مجتمعا مختلطا تبلورت فيه أنماط جديدة مما ساعده على الانتقال من مجتمع منعزل نسبيا قائم على النظام القبلي المحي المحدود في نشاطاته الاجتماعية إلى مجتمع ذو فعالية في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط والقارة الإفريقية⁽¹⁾. إلا أن هذا الاختلاط والتمازج بين العنصر البربري والعنصر الأجنبي خلال العصر الروماني وبسبب النظرة التوسعية

للرومان جعل هؤلاء في خوف دائم من الأجنبي مما حرّمهم من عدة فوائد كانت ممكنة باحتكاكهم أكثر مع الأجنبي، وبعد أن استقر الرومان في بلاد المغرب بدأوا بجلب البربر إلى مدنها وهو ما اصطُح على تسميته تاريخيا بسياسة الرومنة، وقد تميزت المدن الرومانية بما تحتويه من وسائل ترفيهية ومن عمران من أجل جلب البربر وقد لاقت هذه السياسة استجابة محدودة فقد كانت على مستوى العائلات الأرستقراطية البربرية التي حصلت على حق المواطنة الرومانية²

2- التأثيرات الدينية:

قد كان البربر قوم وثنيون يعبدون أصناما لهم كما كانوا يعتقدون في الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر، وبوصول الفنيقيين إلى بلاد المغرب ودخولهم في اتصالات ثقافية وحضارية واقتصادية مع البربر جعل البربر يتأثرون بالديانة الفينيقية، وبعد هزيمتهم أمام الإغريق بدأ القرطاجيون بتغيير علاقتهم مع الليبيين وبعدها أصبح للبربر دور فاعل في قرطاجة بحيث تستفيد قرطاجة من الجيش الليبي الذي سيكون قوة ضاربة في جيش حنبعل إلى جانب هذه التغيرات العسكرية تم تغيير الحكم في قرطاج كما اكتسحت المعبودات الليبية المعتقدات القرطاجية. فبعد أن كانت عشتارت ربة عظيمة في قرطاج استبدلت بربة ليبية اسمها تانيت وهي ربة تمتعت بنفوذ واسع، وكان القرطاجيون يقدمون لهم أبناءها تقربا إليها وخاصة الفقراء منها. أما بعل كبير آلهة الفنيقيين فقد دمج مع أمون كبير آلهة الليبيين وهو ما أصبح يعرف باسم بعل حمون. يذكر أن بعض الأسماء نوميديّة والفينيقية كانت تتكون جزئيا من اسم بعل ك: "أدربعل" و"حنيبعل".

وهناك عدة أدلة اثريّة أن البربر عبدوا الآلهة الفينيقية والقرطاجية خاصة إله "بعل حمون"، كما أن ماسينيسا دعى قومه لعبادة آلهة قرطاجة، تلك الأوثان التي ترمز إلى أسباب الحضارة في نظره، فيغرس فيهم بذلك تمجيد القوة والخير والجمال والحكمة والفن وغيرها من المعاني التي يسمو بها الفكر وتتحسن الأخلاق وتتقوى الشخصية، وتوجد إلى اليوم أصنام للإله الفينيقية "بعل حمون" في كل من قرطبة وميلة وقالمة.

كما عبد البربر من آلهة الفينيقيين "أستارتي" و"جليست" ومن الآلهة التي بقي اسمها إلى ما بعد الاحتلال الروماني لبلاد المغرب نجد "بليدير" وما معناه الرب العظيم، وكان معبودا بجوار مدينة قالمة.

لم تزل ديانة الفينيقيين التي أدمجها البربر مع ديانتهم حتى جاءت وثنية الرومان فتعاشرت الثلاث ثم ظهر الدين المسيحي فتأثر به البربر واعتنقه معظمهم، وقد بقيت بعض العادات الوثنية إلى يومنا هذا خاصة في غربي الجزائر والريف المغربي ومنه ذكره شارل أندري جوليان في كتابه "إفريقيا الشمالية تسير" حين يتكلم عن احتفال يقوم به المغاربة يعرف بعروس "تزلت" حيث يحملون مغرفة كبيرة ويلبسونها ثياب عروس ويجوبون بها الشوارع، كذلك علامات "تانيت" ذات التمثيل الفلكي والخمسة لاتقاء العين الحسود وهذا من آثار الفينيقيين وقد حوربت هذه العادات من قبل العرب الفاتحين وحتى من قبل البربر أنفسهم بعد إسلامهم ومنهم عبد الله بن ياسين أمير المرابطين.

وبعد الاحتلال الروماني لبلاد المغرب وبداية مقاومة البربر لهم برزت آلهة حربية اعتبرها البربر القدماء أربابا للحروب تقف إلى جانبهم وتحميهم، وفي زمن المقاومة البربر للرومان برزت الربة "أفري" أو "أفروا" وهي ربة يشير اسمها إلى الكهف وتعتبر ربة حامية لبلاد البربر كانت ذات نفوذ واسع حسب ما ذكر بيلينوس الشيخ من أنه لا يجرأ أحد على الإقدام على عمل ما حتى يستشير الربة أفريقيا أي أفري. ظهرت هذه الربة على نقود نوميدية منذ القرن الأول قبل الميلاد، ورافقت البربر في حروبهم ضد الرومان، أما عندما استقر الرومان في شمال إفريقيا بدأ تجسيد هذه الربة على النقود الرومانية في شمال إفريقيا بدأ تجسيد هذه الربة على النقود الرومانية في شمال إفريقيا كما اتخذها الرومان حامية لهم، إلى جانب إفري، وعرف عبادة غورزيل المجسد برأس ثور، وهو ابن وحي آمون، وقد حمله الأمازيغ في حروبهم ضد البزمطيين ويذكر كوريبوس أن شخصية مورية تدعى جرنة كان يعتبر الراهب الأعلى لـ "غورزيل" كما كان شيخ قبيلة لواته أغليد القبائل المورية في حروبهم ضد البيزنطيين ويروي الكاتب نفسه أنه عندما انهزم المرفرنجة وهو يحمل الصورة المقدسة لإلهه غورزيل غير أن أعداءه لحقوا به ودمروا صور إلهه.

بعد احتلال شمال غرب إفريقيا انتشرت عبادات من أصل روماني في تلك البلدان وكان أشهرها عبادة جوبيتر كبير آلهة الرومان وهو الإله الذي عرفه البربر باسم ماستيمان، كما أحدث تمازج بين كبير آلهة الليبيين آمون وكبير آلهة الرومان جوبيتر بحيث أصبح يطلق على ذلك الإله اسم "جوبيتر آمون"، وفي شمال إفريقيا انتشرت أيضا عبادة الإله الروماني "ساتورنوس" الذي كان له تأثير كبير في معتقدات إفريقيا الرومانية، إذ يورد القديس تروتوليان أن الأطفال كانوا يقدمونعلنا إلى ساتورن، ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار ساتورن الشمال الإفريقي في جوهره امتدادا لعبادة الرب القرطاجي "بعل حمون" وفي عهد حكم الامبراطور الليبي الأصل سيبتيموس سيفيروس أدخلت عبادة تانيت الليبية إلى روما.

غير أن هذه المعتقدات المختلفة كانت تتمحور حول فكرة كانت الديانة الفينيقية قد بلورتها وهي إيمان الناس بإله واحد أكبر من غيره، وهو الذي كان يرمز إليه الإله "بعل حمون" القرطاجي ثم "ساتورنوس" الروماني الإغريقي، ويرى البعض المؤرخين أنه كان لهذا المحور دور في تسهيل مهمة المبشرين بالمسيحية وهي ديانة تقوم في أساسها على التوحيد⁽³⁾.

كما أن اليهودية وجدت في بلاد المغرب القديم إلا أنها كانت في نطاق ضيق في شمال بعض المدن الساحلية لارتباط هذه الجالية بالتجارة، كما أن اليهودية في حد ذاتها لا تدعو الناس لاعتناقها بل حصرها أصحابها في جنسهم فقط.

ومن أهم الآثار الرومانية الدينية هو انتشار المسيحية ففي بادئ الأمر كانت نتيجة سلبية لسياستهم التعسفية في بلاد المغرب، إذ أن البربر انتقوا الدين الجديد اغاضة للرومان ومخافة لهم، لهذا نجد أن الرومان اضطهدوا معتقي الدين الجديد بكافة الوسائل، ذلك أن المجتمع الروماني ذو العقيدة الوثنية كان يرى في المسيحية تهديد لكيانه بما تنشره من أفكار بدت لهم هدامة، حتى أن الرومان كانوا يرون في المسيحيين على أنهم جنس ثالث مخيف، واعتبرت الطبقة الرومانية المثقفة هذا الدين دين الفقراء والعبيد يؤدي بمعتقديه إلى الهبوط من الواجهة إلى مستوى السوق والوضاعة، وتميزت فترة حكم الإمبراطور "دقليانوس" بشدة اضطهاد هذه الفئة، ولم تسلم منطقة بلاد المغرب

من حركة "دقليانوس" الاضطهادية حيث أصدر أمر بتصفية كل من يعتنق هذا الدين سواء كان من العامة أو عضوا في الجيش أو الإدارة أو مهما كان منصبه، كما أصدر أوامره بمعاقبة كل ممتنع عن تقديم الأضاحي، وخلال عامي 303 و 304م أصدر مراسيم تضمنت منع التجمعات المسيحية وهدم الكنائس، وصادر وثائق النصرى وأتلف كتبهم المقدسة، وأمر بأقصى العقوبات ضد مخالفين هذه الأوامر تصل حتى الإعدام⁽⁴⁾.

وفي سنة 312م اعتنق الإمبراطور "قسطنطين" المسيحية فأوقف حركة الاضطهاد ضد المسيحيين مما جعل المسيحية دين رسمي إلى جانب الوثنية القديمة، الأمر الذي أثر على المسيحية في بلاد المغرب، حيث أصبحت الكنيسة في قرطاجة تابعة إلى كنيسة روما بشكل مباشر، وأصبح أسقفها تحت سلطة الإمبراطور "قسطنطين" وبذلك تعمقت المسيحية في بلاد المغرب الروماني، وبعد أن كانت تقتصر على مدن الساحل أصبحت في المدن الداخلية الكبرى ثم الأرياف والبقاع البعيدة داخل المغرب الروماني⁽⁵⁾.

إلا أن هذه الوحدة بين المسيحيين في بلاد المغرب بين السلطة الرومانية والسكان الأصليين سرعان ما تداعت بسبب محاولة استغلال الدين في أمور السياسة من طرف السلطة، فظهرت بذلك حركة مناهضة لهذا الأمر وهي حركة "الدوناتوسية"، وهذا ما اصطلح على تسميته تاريخيا بالانشقاق المسيحي في بلاد المغرب.

3- التأثيرات الثقافية:

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة، ولكنهما لم تكونا للآداب والعلم، فلما اتصل بهم الفينيقيون أثروا فيهم بلغتهم ومالوا إلى خطهم حتى صاروا بقرطة لا يتكلمون إلا الفينيقية، وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة في عهد ماسينيسا، وانتشرت هذه اللغة بين العامة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجة، ولم تنزل حية بنواحي قالمة وبونة إلى أيام القديس أغسطين، غير أنها لم تكن آنذاك لغو المدرسة، والبلغاء يترعون عنها ويتظاهرون بجهلها⁽⁶⁾.

وقد وجدت كتابات بقالمة وقسنطينية وميلة داخل القبور بهذه اللغة، ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى ما بعد سقوط قرطاجة، وقد عاشت اللغة الفينيقية بالمغرب بعد قرطاجة قرونا عديدة ولم تقض عليها لغات الأمم التي جاءت إلى المغرب بعدهم إلى أن جاء العرب بلغتهم العربية التي غطت جميع اللغات المحلية، وفي هذا يقول البيروني: "اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغة لأنها لغة سامية، وقد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها"⁽⁷⁾.

ومن التأثيرات الثقافية الفينيقية أن البربر اتخذوا بعض الأسماء الفينيقية خاصة من الملوك فنجد ماسينيسا يسمي ابنه مسنبعل وأذربعل واقتفى بعض السكان سبيل سلوكه، فهناك كتابات لاتينية لأسماء فينيقية وجدت بسور الغزلان والأوراس وسطيف ومن تلك الأسماء: صدر بعل، بريق بعل، بوملكار⁽⁸⁾. ولقد انتقل الكثير من أشراف البربر ونبلائهم إلى قرطاجة ليتعلموا اللغة القرطاجية، إلا أن هذه اللغة دخلت عليها الكثير من الألفاظ البربرية فصارت تسمى البونيقية، ومن هؤلاء الأشراف نجد الملك البربري ماسينيسا الذي تزود من قرطاجة بكثير من العلوم ما أكسبه وعيا ثقافيا كبيرا زاد في مكانته إلى أن أصبح على عرش نوميديا فقام بإنشاء المدارس في أنحاء المملكة بعد أن أرسل بعثات إلى قرطاجة، وقد استعمل الملك "صفاقص" وابنه "فرميا" اللغة البونيقية في دواوينهم ورسمها بها اسمهما على نقودهم.

وقد اشتهر "مستنبعل ابن ماسينيسا" باتقانه للغة اليونان وعلومهم، وعادة ما كان "ماسينيسا" يدعوا الفلاسفة اليونان إلى مملكته يجالسهم و يأخذ عليهم العلم هو وابنه، كما أنه جلب الكثير من المهندسين الإغريق ما جعل البربر يقتبسون هذه المهنة ويبدعون في بناء "قرطة" عاصمة الفن والجمال والتي نافست روما وأثينا.

ولا تقل تأثيرات الرومان الثقافية على بلاد المغرب أهمية على نظيراتها القرطاجية، رغم أن الرومان وجدوا أمة بلغتها وأدبها نافرة منهم، فسعوا إلى نشر ثقافتهم بما أقاموه من المسارح والنوادي وما شادوه من المدارس لتثبيت سلطتهم السياسية⁽⁹⁾. وكانت "سيرتا" و"مدرأوش" من أشهر المدن التي يقصدها

طلبة العلم، وقد فرضت روما اللغة اللاتينية على البربر وجعلتها اللغة الرسمية ومنعت الكتابة غيرها.

ومع حرص روما على نشر ثقافتها وآدابها فإن البربر أحجموا على الأدب اللاتيني فالعامة منهم بقيت بعيدة عنها والمتعلمون كانوا يجدون فيها صعوبة حملتهم على تغييرها بما يقرب من لهجتهم حتى أصبحت لاتينية إفريقية متميزة من لاتينية روما، وهذا لا ينافي أن هناك رجالا من البربر نبغوا في الآداب اللاتينية وكانت لهم فيها شهرة خلدت ذكراهم⁽¹⁰⁾، ومن أمثال هؤلاء نجد القديس "أوغستينوس" والشاعر "ميتيلوس" وكذلك "أيوليوس" الذي مارس مهنة الخطابة والمحاماة وتميز في كتابة التاريخ، ونجد منهم "سيدونيوس" الذي أصبح إمبراطورا، ويقول المؤرخ "أوريلوس فكتور" عن البربر: "أظن أن سلالتنا مجدودة ومجبولة على إنجاب الفضلاء فكل أبنائها الذين أنجبتهم وكونتهم نراهم يعملون على أعلى المناصب"⁽¹¹⁾.

وكان الأدب اللاتيني أرقى من الأدب الليبي والفينيقي، إلا أن اللغات الثلاثة تعايشت ولم تستطع اللاتينية التغلب على اللغتين الباقيتين، بل كانت أقل انتشارا خاصة في أوساط العامة، ويقول البيروني عن ذلك: "وفي أيام القديس أوغستينوس كان الولاة الإداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون إلى مترجم بينهم وبين البربر البادين، وكانت اللغة الفينيقية لغة أكثرية البربر حتى أن العظماء الذين تخلقوا بالأخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها"⁽¹²⁾.

وقد بقي تأثير الحضارة الرومانية في عالم البربر حتى أواسط القرن الثاني عشر ميلادي وهذا حسب رأي شارل أندري جولين، ذلك أن البربر كانوا يضربون السكة باللاتينية حتى القرن 8م، ووجدت نقائش في طرابلس تعود إلى 945م و 1003م ونحن نرى أن هذا التأثير انتهى بحلول القرن الحادي عشر، ويتمثل هذا القرن نهاية كل الشواهد الأثرية وانحلال الجماعات المسيحية المحلية.

الخاتمة:

هذا المجتمع البربري شاعت الأقدار أن يكون على مدار الأزمان في استقبال الوافدين إليه من المجتمعات والشعوب الأخرى، إما مرحبا ما حدث مع الفينيقيين والقرطاجيين ثم من بعدهم المسلمين، أو رافضا ومقاوما وحتى طاردا، كما كان الأمر مع الرومان والأسبان وغيرهم من بعدهم، ومن هذا نرى أن الشعوب الوافدة على البربر في بلاد المغرب منهم من فهم ووعى المجتمع البربري وجاء مسالما فاستطاع التعايش معه والتأثير فيه والتأثر به فانسجم معه، ومنهم من جاء طامعا غازيا فلقى رفضا ومقاومة باسلة على طول بقائه حتى خروجه، والدليل على ذلك أن الرومان لو يؤثروا على البربر في اللغة والأدب مثل تأثير الفينيقيين والقرطاجيين الذين جاؤوا رغبة في التجارة فربطتهم مع السكان المحليين علاقة ثقة وحسن جوار ولطف ومعاملة على عكس الرومان التي كانت مقاصدهم في البلاد استعمارية استغلالية.

الهوامش:

- ¹ - الناظوري رشيد ، المغرب الكبير، ج 1 ، دار النهضة العربية ، بيروت، ص 156.
- ² - الناظوري رشيد ، المغرب الكبير، ج 1 ، دار النهضة العربية ، بيروت، ص 162.
- ³ - الشنيتي محمد بشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1984، ص 218 - 219.
- ⁴ - المرجع السابق، ص 277.
- ⁵ - المرجع السابق ، ص 278 - 282.
- ⁶ - محمد بن مبارك الملي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 166.
- ⁷ - المرجع السابق ، ص 167.
- ⁸ - المرجع السابق ، ص 167.
- ⁹ - وفي هذا يقول القديس أغستينوس: "إن الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها السياسية فحسب بل لغتها أيضا" (شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة : المنجي سليم وآخرون، ط3، الدار التونسية، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص 248).
- ¹⁰ - محمد بن مبارك الملي، المرجع السابق، ص 291، 292.
- ¹¹ - الطمار محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص 51.
- ¹² - محمد بن مبارك الملي، المرجع السابق، ص 292.